# الرسالة الثامنة

## فضائح الفتن

بقلم

محمد أحمد الراشد

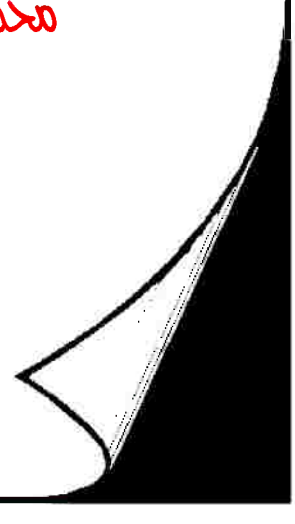

# المعلقة الحادية عشر (١)

هـذه مـقالـة لـم تكتب ليقرأها الداعية المسلم قراءة مجردة فحسب، بل ليحفظها حفظاً، أو لينقشها على كفه إمعاناً فى التذكر.

إنها قصيدة شعر، بل المعلقة الحادية عشر،ولو فطن لها زهير لعلقها على أستار الكعبة مع معلقته.

إن جُملها وحروفها شواهد لك تحتج بها كما يستشهد الناس بالأبيات،ومن أجل ذلك جاءت على طريقة الرمز والتمثيل.

ولئن لم توزن كلماتها بعروض فإن معانيها قد أحكمها الوزن، وأشربت حروفها بزخم من العاطفة جيّاش رفع ضرورة القافية.

إنها معان بالغة الأهمية فى التحذير من الفتن، وموازين عاصمة من الخلاف، نستغل وقت العافية اليوم.

لترويجها بعد أن عانى من أثقال القيل والقال إخوان لنا بالأمس القريب والأمس البعيد.

إن التحذير من الفتن اليوم أدعى أن يستقر فى القلوب إذ هى هادئة ساكنة، فيكون عندنا من الاحتياط ما يغنى عن مضاعفة الوعظ إذا غزتنا الخلافات، وما نخال الصف المسلم يبرأ منها تماماً مهما ارتقى حالنا، لأن الشيطان حى وله إغراء.

إن هذه المعلقة لم يكتبها فرد، وإنما جُمعت نصف معانيها من أفواه فقهاء الدعوة خلال جلسات بحث عن طريق وحدة صف الموحدين.

فاستقبل الخير بقلب حر، ولا تقرب لهو السائبين..

أوراقى مبعثرة... يتناهبها الأطفال

وأقطف الأزهار... وأدعى الجمال

خلعت ردائى... إذ أشكو البرد

ونصبتُ خيمتى فى وادى العواصف...فى ليلةٍ شهباء... ثم أعجب من أين يأتينى السعال؟

## مفارقات النفس ذات السر

أبيع بلا ثمن. . . وأشترى بلا خيار. . آهٍ منى آه. . . منى السبب

كيف أربى الآخرين. . . وأنا أحتاج التربية؟

من لا يستطيع تصحيح أخطاء نفسِه فلا يصح له أن يكون قيّماً على أخطاء الآخرين يصحّح لهم وينقد.

*****

سبحان من خلق هذه النفوس. . . أى سر هو سر هذه النفوس؟

حساسة. . . متنوعة. . . متقلبة.

بينا تظنها فى غاية الصفاء: تهزها مفاجأة فتطفو الشوائب.

وبينا تعاملها فتلمس نهاية السهولة: تدهمها قسوة فتدعها صلدة على أعنف ما تكون القسوة. . . رضاها يُغلفه غَنَج ودلال. . . وغضبها يحب الاسترسال. . .

بين سِلمها وحَربها يوم، وبين حِلفها وهجمتها ساعة، وبين سكينتها وصخبها دقيقة، وبين ظَنيها الأول والثانى ثانية.

لا تُخفى سيفَها فى قُراب. . . بل هو جاهز.

ولا تلجأ سهامها إلى جُعبة. . . بل وتَر قوسها مشدود.

مِن أهلها مَن تستفزّه كلمة ينسى معها قاموس التآخى، فيخرج إلى عدوان، ويجرّد أصحابَه مِن كل فضل، كأنْ لم تكن بينه وبينهم مودة وخبز وملح.

ومن أهلها من إذا جُهل عليه لا يحلم، ولا يعفو، ولا يصبر، ولا يرجو ما عند الله، بل يجهل فوق جهل الجاهلينا.

ومن أهلها من لا يعاتب عتاباً مُنَجّماً أو مُعجلاً مضارعاً إذا ساءه أمر، بل يصبر ظاهراً، من غير عفو فى الباطن، ولا يحاول أن يقسرها على النسيان والتغاضى، وإنما

يكتم فى قلبه ثم يكتم،ويظهر الابتسام، وفى الداخل يتعاظم الرُكام حتى إذا بلغ أطناناً ثقيلة: انهار السد، فيفجأ المساكين سيلُ العَرِم، ويتكرر ذلك منه سنويًّا، فيحاسب إخوانه على ما سلف منهم معه،وتكون كبيرة كمية الاتهام، لتراكمها، ويعين ذاكرته بدفتر التقويم،الذى أحصى فيه ما نسوه وأرّخه وضبطَ ألفاظَهم، وقد يحتفظ برسائل منهم ووثائق فيها هفوات لفظية ليستعملها أدلة فى التجريم، فتكون ثَم الآلام، وأصداء الآلام، وما هو أعتى من الآلام.

●●●●●

# أساسيات

وخطبنا فضيلة الأستاذ المرشد عمر التلمسانى ـ رحمه الله ـ فقال: إن أمرنا يفهم من خلال قضيتين.

رؤية الحق، وأن يرزقنا الله اتباع الحق.

وذلك دعاء النبى ﷺ: «**اللهم أرنا الحق حقًّا، وارزقنا اتباعه**». وصدق ـ رحمه الله ـ .

إن دارنا أيها الإخوان دار عمل وعبادة، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وتهذيب وتعليم، وما هى دار فلاسفة يتجادلون، ولا منتدى شعراء بضاعتهم اللسان، ولذلك فإنّ عُرفنا يقول بتأكيد أساسيات العمل، من الطاعة التامة،والتزام النظام والخُطة والمنهج،وعدم الالتفات على التسلسل المرجعى،وترك التقدم بين يدى المقدّمين، وإن تربيتنا تقوم على تعميق أساسيات الإيمان، من ترسيخ العلاقات الأخوية وتعمير القلوب، وصون اللسان... نطرح الحسد... ونقيم التكافل.

ونخرج من ضيق القبلية والإقليمية والشعوبية، إلى سعة التعارف ورحاب العمل المنتشر فى الآفاق.

نضع مشاعر الجاهلية تحت أقدامنا، ونلبى أمر الزنجى الأسود إن كان هو الأعلم الأكفأ.

توجهنا إيمانى، وشرطنا إسلامى، وشعورنا أخوى.

لا نعرف الضغينة.. ولا نسمح بالغيبة.

*****

يا ترى كم موسوعة يمكن أن يؤلفها فضول القول الذى قيل أثناء الخلافات؟

وكم ساعة عمل ضائعة هدرها الوقت المستهلك فى استنباط الظنون؟

ومن غرائب التربية: أن الجديد والشاب الناشئ تستطيع أن تعظهما وتدعوهما إلى ترك الرياء والتكبر والمراء، يعدّان ذلك منك إرشاداً وتربية وتوجيهاً، أمَّا القديم المخضرم فإنك إن وعظتَه بمثل ذلك اعتبرها تهمة له، ورفض نصحك وزمجر، كأن لم تكن توبة رسول الله ﷺ فى اليوم سبعين مرة آخر حياته.

## أمنية الراشد الإخلاصُ

وخطبنا الأستاذ عمر ثانياً فتساءل:

ما الذى تغير بين الأمس واليوم فى دار الدعوة؟

يجب أن نعترف بأن الأحداث حرفت بعضنا وأنشأت بينهم المرارات...

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾[١].

لم تكن فى أيام الدعوة الأولى ماجستيرات ودكتورهات، لكن النفوس كانت أصفى، أخى الذى أعَدّته الجماعةُ ليختلط دمُه بدمى فى ساحة الجهاد: أصبحت أطعن فيه، كلنا علماء تنقصنا زيادة حب.

ليس يخفينا أننا قلة، أو أننا بدون عُدة، إنما الذى يخيف أن ننسى أنفسنا فلا نكون على صلح مع الله.

لو آمنا حق الإيمان لانتصرنا بإشارة إصبع، لا نطمع أن نعيش طول عمرنا مخلصين حق الإخلاص، إنما يكفينا أن نتوغل فى الإخلاص الحق لحظة بمقدار ركعة.

ليس الدهاء يوصلنا، بل التوكل، وأن ندعو ونقول:

«اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً».

وتناصر المؤمنين بينهم أساس، وبهم يظهر قدر الله فى النصر.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[٢].

رحمه الله، وعجباً له من مرشد راشد أرشد فوفى.

## ألا تستغرب.... !!

ومن محاسن جماعة التبليغ: أن أحداً منهم إذا وقف ليعظ الناس: رفع أصحابه أكفّهم يدعون له أن يصيب القول وأن يهبه الله البلاغة.

وليت كل دعاة الإسلام يفعلون ذلك إذا تكلم إخوانهم، لكن إغراء الشيطان فى ظروف الفتن ربما يجعل اللجوج الممارى يتمنى إذا تكلم أخوه المخالف له فى اجتهاده

(١) سورة القيامة.
(٢) سورة الأنفال.

أن يتلعثم ويطيش، وينسى النحو والفصاحة، وأن يقض مضاجع سيبويه.

فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

**كان الشافعى يقول:** ما ناظرت أحداً إلا وددت أن يظهر الحق على لسانه.

أما أخى فيريدنى أن أخفض معه المرفوع.

إن مراقبة تواريخ الفتن توضح أن كل من فجر فى الخصومة كان من الذين لم يحصلوا على التربية الكافية فى أول أمره، وشرف النسب وبيوت المروءة والكرم تميل بالمخالف إلى العفة والسمو فى أدب الخلاف.

إن الحساسية تبلغ مداها لدى الداعية السوى، ونفسه تعاف كل جو خانق غير نقى، إن روحه لا تطيق الأجواء المغبرة وانعدام الأوكسجين، ومؤلمة هى لفحات التراب.

أسلوب فى القتل هو الخنق، ونمط فى الإرهاب الطائش هو العصف.

## وحقوق الدماء أين؟

الجنة هدف، طريقها الإيمان، والوسيلة الحب، والحارس النظام.

فى بادئ الأمر قد نميل إلى الحلم مع المسيء، ولكن عند اللجاجة تكون العقوبة هى الحكمة.

أمور الخلاف المرير قد ترفع الرقة بين المختلفين، ويكون البأس بينهم عنيفاً، إذ الأسباب تافهة.

إن المخالف إذا ارتكب إثماً بحق الجماعة ولم يعاقب: تلفت وانتظر، لعل عقوبته تأخرت، فإذا مر زمن كاف ولم يعاقب: ظن أن الجماعة تجله أو تخافه، فيرتكب إثماً ثانياً أكبر من الأول، حتى يكون الشقاق له عادة.

مثلما تجب مكافأة المحسن: تجب معاقبة المسيء، وإلا تجرأ آخرون على الإساءة، لما يرون من عدم محاسبة المسيء الأول.

إن دماء الشهداء إذ تسيل تكتب واجباً على الأحياء: أن يسيروا بلا خلاف فى إتمام الشوط الذى بدءوه.

ذلك أول الحقوق الشخصية التى تثبت للشهداء، فمن ذا الذى يطالب بحق الدم الضريج؟

واأسفا على يوسف، باعه إخوانه بثمن بخس، وطغى عصر الضجيج.

## رءوس..... !!

ذهب المترفون يطالبون بحقوقهم، وأقسموا أن لا حلم ولا مسامحة بينهم، لكن حمزة لا بواكى له...

إفساد الأعداء الخارجين وكيدهم لنا يزدنا تماسكاً، لكن النخر الداخلى يوهى ويدهى، ويلهى ويسهى.

وأثناء الفتن تتسرب أخبار الدعوة إلى العدو، فإن عاتبت: أنكر عليك أن تتهمه بالإفشاء، وقد صدق، لكنها اللامبلاة، وأشنع ما فى الفتن: أن أصحابها جميعاً يرون أنفسهم رءوساً، فيضع الحساب عليك ولا تدرى كيف التفاهم ومع من يكون؟

لا يرون أنفسهم عشرين مخالفاً، بل يرون أنفسهم عشرين زعيمًا قائدًا فقيهًا مجتهدًا فيلسوفًا...

وبعض الدعاة يكون الواحد منهم على أحسن حال وأجمله، لكنه إذا اجتمع فى عمل واحد مع أمثاله: اختلفوا وتناحروا، ومثل هؤلاء يستفاد منهم أتباعاً، ولا يصح أن نجعلهم فى المقدمة.

يريدون تصفية العدو، ونفوسهم أحق بالتصفية.

وأصدق ما قاله الأستاذ مصطفى مشهور فى هذا الباب ـ تمييزه بين اثنين ـ **فقال:** هناك داعية عامل، وهناك عامل نفسه داعية !!

## شفقة.. لكنها مهلكة..

ويفكر مشفق على وحدة الصف وعدم خسارة الجماعة للنفر الذين عشقوا الرياسة بأن يمنحهم ما يبغون، ويسترضيهم، جمعاً للجهود، وحرصاً على كل الطاقات أن تظل فى خدمة القضية، ويقول: يريدون الأبهة والمكانة، فلنعطها لهم، لعلهم يتدربون، وتعركهم الأيام فيفيقون. وترهقهم المسئولية فيزهدون، ولنشركهم فى الشورى لعلهم يرشدون، وإنه خلاف بين الأقران، ويستحسن أن نرضى كل

الأطراف، **ثم ينادى يحث**: هيّا هيّا، ليحتضن كل منكم إخوانه، ثم يرجع وقد ظن أنه قضى بحله العاطفى هذا على فتنة.

إن مثل هذا الاقتراح هو مذهب فى سياسة الجماعات خطأ، واجتهاد فى التربية غريب، فإن إتاحة الفرصة لغير ذوى الأهلية والكفاية مهلكة لهم، والاستشراف للمسئولية علامة خلل فى التركيب النفسى للداعية، وإنما تنبثق العناصر الريادية من خلال السير انبثاقاً تلقائيا، وتتم تنمية المواهب من خلال منهجية تربوية شاملة، لا من خلال الجرى مع تطلعات الفضول، وتلك الطريقة هى من سياسة الحكومات الائتلافية، بحيث ترضى كل الأطراف بمقاعد الوزارات، وتستحدث لرجال الائتلاف عشرين وزارة دولة ومائة وظيفة استشارية لا تدعو لها ضرورة، بل على حساب حقوق الشعب وعلى حساب النظريات الإدارية، وأما سياسة الدعوة الإسلامية فأنبل وأسمى وأعف، ولا يتقدم فيها إلا القوى الأمين المتجرد.

## أصول اصطناع الرواد

إن التربية الريادية تتطلب تعويد ذوى القابليات والذكاء من المؤمنين على التفكير الحر، والقياس، والاستقراء، والتحليل، والتعليل، وتمرينهم على استعمال القواعد المنهجية والمنطقية، وهذا يتطلب تنمية قابلية الوصف الدقيق لديهم، واكتشاف العلاقات وفهم الواقع، وكل ذلك من أسس الاجتهاد وطرائقه.

لكن هذا التعويد والتمرين لا يصح الاستطراد فيهما بشكل متصل بل لابد من أن يتدخل الأمراء فى اتخاذ القرارات الواضحة الجازمة، شفقة على المتدربين الصاعدين، وتخفيفاً عنهم،لئلا ترهبهم لحظات التردد عند منعطفات الطريق المهمة وفى اللحظات الحاسمة.

**بمعنى**: أن تدربنا لا يكون فى فراغ، بحيث نجعله مقدمة لتنفيذ وممارسة لم يحن أوانهما بعد، بل هو تدريب فى ظل إمارة متصدية وعمل سائر، وأن التنفيذ مختلط بإنماء الفكر وبالتخطيط اختلاطاً دائماً وجزء من التدريب أن يلحظ المتدرب اتخاذ الإمارة للقرار الفعلى، ليس أن يلحظ مجرد التمثيل الافتراضى .

إن الحرية اللازمة للمتدربين لا يمكن أن تكون تامة وليس من مصلحتهم ذلك، وبالتالى فإن حدود دار الشورى لا يمكن أن تكون واسعة مترامية الأطراف، لأن

القرار يصعب عندئذ، لكثرة المتناظرين، أو يكون الوصول إلى القرار ببعض تكلّف، فيكون ثم الطيش لا الاجتهاد، وتكون نزعة النفس فى المشاركة الشورية قد لُبيت وأُشبعت، على حساب الصواب.

**قد يقول قائل:** إن الرهبة التى تعترى الصاعد فى اللحظات الحاسمة هى جزء من المعاناة التى يجعلها فقه الدعوة نقطة ارتكاز التربية الريادية، وبالتالى فإن سعة الممارسة الشورية مطلوبة.

**فنقول:** نعم هى جزء، وهى مطلوبة، ولكن كمشاهدة ومتابعة، بحيث يرى الصاعد عملية نضوج القرار، ويتاح له أن يجرب مقادير استيعابه لدلالات الظرف، فيقول قوله متمكناً، مشيراً، ولكن بنية التدريب على القول، وأما صناعة القرار فى أصل الأمر فملك من خرجته من قبل هذه المعاناة بنجاح، إذ ليس كل متدرب متخرج، ولا كل ذكى مؤهل للقول، ولا كل من عانى من ضغطين وصل، لأن حق صناعة القرار نتاج معادلة صعبة نادرة التحقق، أولها النية الخالصة وحسن التوجه، وآخرها المعاناة والتدرب، وبين البداية والنهاية ذكاء وعلم ونفس سوية، ومعرفة أفقية بالساحة العريضة، وتأمل عمودى فى التاريخ الممتد.

## الوزن المسترسل

إن الديك الفصيح إذ هو لا يزال فى البيضة يصيح.

قول للعامة يجب أن لا تغفل عنه منهجية التربية الريادية، وكم للعامة من أقوال حكمية، وإحساسات سليمة.

إنك لا تستطيع أن تفتعل الرائد افتعالاً وتصطنعه اصطناعاً إذا لم ينهض به قدره وترشحه فطرته.

لن تخطىء عينك الرائد أبداً، ولعلك تصادف فتى من ناشئة الدعوة لم يبلغ مبلغ الرجال، فتدرك أنه لها، وليس هو بالذى يميز مقدمات الدعوة بعد.

أول ما تقع عليه عينك، ومن النظرة الأولى تقول: هذا مبتغاى.

ولمثل هذا نفتش عن منهجية التربية، ونحاول تلمس المدارج التى تأخذ به صعدا.

لو كانت مجرد صيحة لتركنا كل فصيح يصيح، لكنه علم الدعوة يقول: لا، ليس هو الصياح، ولا مجرد العواطف، ولا قفزات المستعجل، إنما هى أنغام الحداء التى تقود القوافل فتوصلها، ولابد أن نُعلّم كل فصيح هذه الصنعة.

وفى الأنغام تجانس وتوافق، وجمال وتناسب، وتدرج واستمرار، من الصفات المتماثلات، ولكن فيها أيضاً من النقائض السرعة والسكون، والرتابة والتجديد، والعلو والهبوط، وكل هذا التماثل والتناقض لازم لتربية الرائد، فمتماثلاته تؤدى به إلى استهواء النفس، ووحدة الفكر واتساقه، ومنهجية السير، والثبات على الارتباط بالمنطلقات الإيمانية الأساسية، وتناقضاته تمكنه من التكيف مع الظرف، والمرونة إزاء المفاجأة، وإتقان التملص والإفلات والفر إذا لم يُتَح له الاقتحام ومواصلة الكر.

## أضرار التقليد الجزاف

إن الإسراف فى إشراك كل طبقات الدعاة فى الشورى، وكثرة تعليق الأمور على اتخاذ قرار شورى ولو كانت صغيرة، وكشف الحيثيات التى تؤدى إلى القرارات، وإطالة مناقشة الخطط مع منفذيها قبل إقرارها، كل ذلك أدّى وما يزال يؤدى إلى إنتاج دعاة فضوليين، يكثر لغطهم ويقل عملهم، وبالتدريج تنصبغ مجالسهم بصبغة الغيبة، وخشونة الألفاظ، حتى تكون تهورات اللسان أمراً مستساغاً، وتُغتال فضائل المجالس التى شهدت بها قواعد التربية الإيمانية اغتيالاً، ويصبح الداعية المشارك فيها قليل الاحترام لعناصر الرعيل الأول، كثير الجرأة عليها، وأقرب إلى سوء الظن والغمز، طويل النقاش، عريض التحدى.

وليس ذلك عرف المؤمنين أبداً، ولا سَمتهم الذى ورثناه، إنما ورثنا الحياء وعفاف اللسان واحترام الكبير وتبجيل السابق، والتأول الحسن وترجيح العذر، وجمال اللفظ، والاستغفار للذين سبقونا بالإيمان، وتكرار الدعاء للمربى والحادى.

الشورى حق، وتطييب خواطر الصاعدين حق، وإشراك المنفذ فى صناعة القرار حق، لكن ذلك كله إنما يكون فى الحدود الوسطى، وبالإنصاف لا بالهوى، وبالمعروف ولمصلحة الدعوة لا لمجرد التطلع، وإذا لم نتقيد بالضوابط فى الممارسات الشورية فإن الأذواق ستفسد، ويكثر الصخب الذى يرهق الثقة المؤهل للتقدم، فينزوى، حفاظاً على عِرضه وسمعته، ولئلا يقسو قلبه عبر قيل وقال.

**نقول ومع الأسف:** إن الغوغائية التى صنعتها الديمقراطية الحديثة فى الشعوب يمكن أن تظهر بصورة أخرى فى أوساط دعاة الإسلام إذا أسرفنا فى الشورى، ونحن قبل الداعية المشاكس: نعيب الاستبداد الفردية ولكن الشيء إذا تجاوز حده آذى .

إن الاجتماعات الشورية ميدان يستطيع خلاله العقلاء، أن يبدوا حكمتهم، أو أن ينصتوا لحكمة غيرهم، وليس فى الحياة ألذ ولا أطيب ولا أهنأ من أن يُجرى الله على فيك حكمة تقر بحروفها عينك، أو أن تصغى بأذنك وقلبك لصواب حكيم يهديك ثمار عقله مجاناً، أما أن تتحول رحاب التشاور إلى تلاوم جاف، وتحديات باردة، وجدل مستطيل، فهنالك يجد الهوى ثغرته ليلج، وهناك تنعصر القلوب وتنزف الجراح.

ويصف البعض تضييق الشورى بأنه توجه من أولى الأمر خاص يستجلبون به مداهنة إخوانهم، وهذه تهمة باردة، فإن المداهنة خلق ضعيف يدل على اختلاط فى النية، وعندنا أن الذى يحاول تقليد مربيه فى كل اجتهاداته، ويسارع إلى إقرار ما يذهب إليه بلا مناقشة، إن هو إلا داعية قليل الموهبة، ضعيف التفكير، أو هو متزلف تنكر طريقته قلوب المؤمنين، والفؤاد الحر يؤذيه التعكير.

إن الطاعة الواعية هى أصل تفسيرنا للجندية، كما أن الحوار وتقليب وجوه النظر هو أصل مذهبنا فى صنعة الريادة، لكن الأدب، والرفق، واللفظ الجميل من الصدر السليم أصل ثالث قرين.

## الإبداع يحتاج الحرية

البعض يريد القائد آلة ميكانيكية بيد الجماعة، تشغله بأزرار، وهى التى تُنطقه وتخرسه، وتحركه وتوقفه، وذلك فهم يابس لنمط من العلاقة أشد يبوسة، ليس يأتى بخير.

بل القائد كتلة مشاعر، ومجموعة عواطف، وذهن يتأمل، وقلب يتجول.

يجب أن ندع له مجال الاجتهاد حتى وإن قيدناه بخُطة، وعلينا أن نترك لفراسته دوراً، ولذوقه مجالاً.

أحياناً نقيد القائد، ونجرده من أى حرية فى اختيار الأعوان، ثم نطلب منه أن ينجز المعجزات، أليس ذلك من العجب؟

ما كان علىّ ﷺ عاجزاً، بل هو قمة فى التقوى والعلم والشجاعة، ولكن خذله أصحابه.

ولئن قبلنا للقائد أن تقيده شورى النُخبة، والقدماء، وأهل الحل والعقد من العاملين، فهل نستطرد لتقيده ارتجالات الجدد، ورغبات المستعجلين، وظنون المتهجسين، وأهواء العاطلين؟

إن أقراناً يتنافسون دهراً ربما يكون شرط صلحهم: نحر الأمير فهنالك الظلم.

ولربما استجاز اللاحقون التشويش على بوصلة الجيل الرائد، فهنالك المتاهة.. هنالك يكون انقلاب الموازين:

ساقة ترتاد.....وقادة تنقاد...

تلك هى الفهاهة.

من أساليبهم: اسندنى وأسندك، يتواصون بذلك، فى عقد، لكن لا تشهد له أخلاق الإيمان، فهو غير مبارك.

ومن طرقهم: المحاصرة المتقنة، فينفر الثقة.

ويبلغ دين المرء أحياناً أن تكون فيه مخادعة.

كم من فتنة يبرع أصحابها فى تغليفها بغلاف، فلا تُرى، ويظن الواعظون أن ليس ثم شىء، فيشكرونهم.

ويبلغ الأسلوب الهجومى الصدامى عند أحدهم أسلوب الأعرابى القاسى الذى قال: لتجدنّى ذا منكب مزحم، وركن مدعم، ورأس مصدم، ولسان مرجم...

## ثم يهز الأمير الفقيه قلبه هزة الإيمان..

وبسط لنا الأستاذ المرشد عمر التلمسانى ـ رحمه الله ـ أصول فقه القضاء فى الفتن فقال:

من الموازين فى قضاء المحاكم الدعوية فى الفتن، أو معالجة القيادات واللجان لها: تعجل البت ، فإن تأجيل الحكم أو تأجيل السعى للإصلاح إنما هو فتح لباب الشيطان، يغرى بالتمرد، والتسيب ليس صحيحاً، وقد تكون هناك مماطلة غير مقصودة تأتى بضرر، وإنما يصح التأجيل لحين، لضرورة التحقيق، أو إلى فترة نقدر

فيها ميل النفوس إلى السكون،أو لترك فرصة للمخالف للتأمل فى معانى التوبة، وهذه فسحة لا مماطلة،وإرخاء حبل وليس تركه على غاربه.

**وكذلك من الموازين هنا:** أن لا نطلب العدل والحق فقط، بل نطلب الرحمة أيضاً، والرحمة فوق العدل، والمخطئ محتاج للرحمة، وكان رسول الله ﷺ يُشتم ويؤذَى فيحلم، والذين فصلهم الأستاذ الهضيبى ـ **رحمه الله** ـ مثلاً لم يفصلوا من أول خطأ ولا ثانى خطأ، بل لما تكرر الخطأ كثيراً ، والمسألة خاضعة لتقدير المصالح والمفاسد لا الحكم بجنة أو نار، وإنما نجتهد اجتهاداً.

لكن لا يصح تحميل قائد أوضاعاً مهترئة، والفصل اضطرار نضطر له، وهناك أصحاب نزعة انفرادية طبيعتهم عدم التقيد بالأوامر، وإذا وضع فى الصف يُفتن رغماً عنه، وهناك تكون الرحمة بأن نعفيه من العمل والمسئولية لنحفظ إيمانه، فضلاً عن أن وجوده يسبب الحرج.

وهذه المعانى هى تربية لنا جميعاً، ثم هى مسألة تنظيمية ثانياً، فتجميد أحد أو نقله من مركزه: أمر اختبار له من باب، ويفسر بموجب القواعد الجماعية من باب آخر، أى القواعد القائلة بأن كل داعية هو جندى يعمل فى الموطن الذى يوضع فيه، ومن الافتيات على مصالح الدعوة العليا أن نعتبر الأوامر بإجراء بعض التغييرات انعكاساً لموقف شخصى أو حقد أو تنافس، لأن الانسجام مطلوب، وكل له أجره، وقد يكون أحد صاحب كفاية لكن إخوانه لا ينسجمون معه.

**ومن الموازين:** اجتماع عدة مفاسد وأضرار فى آن واحد، من العدو أو من بعض الدعاة الساذجين، بحيث يكون وضعنا مرهقاً، كثير الإتعاب، ولا يحتمل مزيداً من المتاعب باختلاف المختلفين، ويصبح الحزم فى البت من باب الرحمة بالدعوة، وهى أرجح من الرحمة بالأفراد.

كذلك لا ننكر أن الأخ قد يُحترم لسبب آخر غير مكانته الإدارية، كعلمه الشرعى مثلاً، أو سابقة له، والعفو عن العالم المخطئ أسبابه مضاعفة، ومع ذلك فالتفريق واجب بين العفو عن حقوقنا الشخصية والعفو عن الحقوق الدعوية العامة، فتتسع هناك، مع شدتها على النفس وتضيق فى الأخرى.

**ومن القواعد أيضاً:** كثرة التداول فى أمر الاختلاف لإنضاج الرأى ومعالجته،

دون التسرع أو شبه الانفراد، لكن الاستطراد فى ذلك فى وقت الفتنة: زيادة فى الفتنة، وإعنات وسوء الظن أحياناً حزم من المسئول، كما ينسب لعمر رضي الله عنه .

وهكذا فإن الحكم والموقف فى قضايا الاختلاف هو شد وجذب بين عدة موازين، يميل بك ميزان إلى الرحمة، ويشدك آخر إلى الحزم ولكل حادثة ظروفها الخاصة التى ترجح أحد الموقفين، ولكل حادث حديث، ولكن يجب أن يكون من القضاة والقادة خلوة إلى أنفسهم لاستذكار هذه المعانى والموازين، ويتركون قلوبهم تتأرجح مدة بين يمينها وشمالها، ثم يهزونها هزة الإيمان لتستقر بعدئذ على قرار.

رحمة الله عليه، كم كانت هزاته هذه منصفة...

ويلاحظ فى أمر الخلاف أنه كلما كان فكرنا واضحاً وقواعدنا الإدارية واضحة: قل الخلاف جدًّا، وكلما كان التعميم: كثر التأويل، ويدعى كل واحد أن شرحه وتفسيره هو الصحيح.

فالوضوح وتخصيص الدلالات هو ضمانة ضد الفتن أكيدة.

ما أحلى النصوص المرنة الفضفاضة فى أيام التحابب، لكن الخلاف إذا اشتد فإنها تكون مصدر متاعب، وتكثر التفسيرات.

لك تأويل لها، ولى تأويل، وأشد فتشد، فيكون التعطيل.

**ويصح أن نقول:** إن الأوضاع الاستثنائية ووجود الفتن تجعل اتّباع حرفية نصوص الأنظمة أحياناً مرجوحاً، والخروج عنها جائز لتحقيق مصلحة، لكن لا يخرج عنها أحد باجتهاده، ولا تخرج عنها المجموعة الصغيرة، وإنما تخرج عنها الجماعة بإجماع أو بقرار شورى.

وتعصر القلب مرارة حين لا يجد المخلص أمامه لتجنيب الدعوة أضرار الفتنة سوى اللجوء إلى قضاء سليمان ـ عليه السلام ـ بين الوالدتين، الحقيقية والمزيفة، ضحت به الأم الحقيقية رأفة أن يشق إلى نصفين، فيكون تحمل أسواء السيىء شفقة على الدعوة أن تنشطر شطرين، وفيمن يظاهر السيىء أبرياء يأخذون بالظاهر، والسر يلجم المخلص أن يبوح به، ولو صرح به لاقتنعت نفوس، وهدأت قلوب، لكنه السر.

وتتضاعف المرارة حين يتوهم المقضى لهم أنهم على حق، وأنهم كسبوا جولة، فتكون لهم صولة، لا يدرون أن سد الذريعة أنجاهم.

إن الجدد لا يلغطون إلا إذا لغط بعض القدماء، ومن طبائع النفوس التقليد، ومن سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

## • وخطبنا الثقة فقال •

إن حزن القلب إزاءالإساءة فطرة، وفى تعزية الله تعالى لرسوله ﷺ عبرة، إذ قال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾(١).

فكيف بمن هو أقل مثلنا؟

وكيف إذا كانت الإساءة لا من كافر طبيعته الإساءة بل من مسلم، بل من أخ لك فى الصف؟

إن التقوى تدعونا إلى أن نتحكم بألسنتنا، ثم ندعو الله أن ينسينا ويمحو من ذاكرتنا حوادث الإساءة لنا كى تبرد قلوبنا ولا يستمر غليانها.

لا نقول إلا ما يسدد ويقارب، وما يرضى الرب، أما ما يفرق وينبت الضغائن فلا، بل نصمت، ولا تتحرك ألسنتنا إلا بخير، وتلزمنا تقوى مضاعفة عندما تفور قلوبنا.

إساءة الكافر لنا تقوينا، وإساءة المسلم تؤذينا.

الطغاة خدمونا، لأنهم ظلموا، فَمَلَك الناس الشوق للحرية... من معاناة الظلم والمحن يتعلم الشعب الحرية، لكن الفتن تكسر النفوس، وتخذل الهمم.

إن المحن مقادير من الله يليق لها الصبر لتتحول إلى صالحنا، بإذن الله، وهى تجارب مربية، وسينهار كل ظلم يوم تتحد قلوبنا.

أما الأسباب الداخلية فتؤذينا، والأبنية الجماعية لا تنهار بأسباب من خارجها، لكنه النخر الباطن.

●●●●●

(١) سورة الأنعام: ٣٣.

## الابتسار طريق الاندثار

يجب الرجوع إلى القاعدة الأساسية فى الاهتمام بالكيف لا بالكم، نهتم بالعمق وبخط رأسى أكثر من الخط الأفقى.

تربيتنا يجب أن لا تعتمد التلقين فقط.

نحتاج إعادة الصياغة وإطالة الركوع.

كم من تهور سببته الحسابات العاطفية والنـزعات التكاثرية، كان منه الإحباط والتدمير المعنوى؟.

لذلك فإن الحلول التوفيقية لقضايا الفتن لن تفعل شيئاً سوى أنها تؤخر انفجار الموقف.

إنها كمثل قربة مخرمة كثيرة الثقوب، لا تدرى بعد ترقيعها متى تفتق عليك وترش ماءها؟

إن لغة الشعر لا تصلح لدار القضاء.

إذا خالفت مجموعة بقية الجماعة فإن صيغة الموازنات والإرضاء قد تكون فاشلة أحياناً، ومن الخطأ أن يُحل الإشكال بتـأمـير رجـال من هؤلاء يزاحمون البقية، ففى ذلك تكريس للخلاف، وفيه إغراء لا للمخالف فقط فى أن يسخر كل طاقاته الإبداعية لمعاندة الآخرين وإظهار خطأ مذهب الأكثرية، بل حتى الإمارة التى انشق عنها المنشقون ستلتهى بقضايا مفضولة، وستسير مع المخالفين بسيرة مداراة دبلوماسية، أو ستبذل من طاقتها مقداراً كبيراً لتفنيد أقوال المقابل ورصده ورد ما قد يستجد على لسانه بعد الصلح.

إنها معادلة صعبة، والفصل مع قسوته قد يكون أفضل وأكثر تحقيقاً لمصالح الجماعة.

المعالجة الظاهرية لا تجدى، لأن محاولات الباطن ستظل تعمل، تحفر وتنخر بعيداً عن أنظار المراقبين.

*****

إذا قضى القاضى بدينار مختلف فيه وهو غضبان متوتر منفعل، كان حكمه مخالفاً لسنة القضاء، فكيف نحكم الدعوة ونسوس أمورها فى مجالس يسودها الغضب وتسيرها التحديات؟

وميل القاضى إلى أحد الطرفين فى حكم بدرهم يفتح باب الطعن فى الحكم، فكيف بعصبية الشللية التى تعطى للانحياز بعده الجماعى العميق؟

## قل أعوذ برب الناس

ووصف لنا الثقة حيصة فى ساحة إخوانه فقال:

ليس هو الانشقاق فقط بل تقاعد، بل انسحاب، بل تمزق.

لذلك لا تفيد إلا المعالجات الحاسمة، أما المداواة السطحية فلن تجدى شيئاً.

من الخطورة بمكان تسوية أرض المعركة قبل أن تنزع منها الألغام أولاً.

بعض الناس يلوّح لهم براية من بعيد، فيقصدونها من غير تمحيص

يريد البعض أحياناً تحطيم أحد يضيقون به ذرعاً،لحسد أو غيره، فتثار حوله التهم، لكن العملية تُفلسف فى صورة دعوة لمذهب فى العمل جديد واجتهاد مبتكر، وهى زخم شخصى ليست أكثر.

إن أشنع الظلم أن تتخذ من أخ لك هدفاً وتجمع الناس والجموع ليرجموه معك.

المحورية أخت الحزبية.

والتنازع على المواقع بالوقيعة باطل.

وأول تلقين الشيطان لصريعه أن يعلمه أن يقول... «أنا».

نحن دعاة، لم نجتمع،ليكره بعضنا بعضاً؛ وإنما اجتمعنا لنتعاون على مشقة الطريق.

وهل يدرى المفتتن كم يلهى من معه من الدعاة عن قصودهم، وكم يهدر من أوقاتهم إذا انصرفوا له ناصحين ودخلوا بينه وبين إخوانه مصلحين ومحكمين؟

إنها جهود وأوقات تذهب هدراً.

إن الممارسة السياسية تكون أحياناً قليلة الجدوى، لاهتزاز بناء الجماعة بالخلاف،

وتكون الأولوية عندئذ لإعادة البناء ودرء الفتنة، وتكون التربية هى القضية الرئيسية.

إن الزمان لا يُسلم إلى عاطفى متسرع، إنما يعطى للعقلاء أصحاب التقوى والعلم.

وقد صدق الثقة... ثم صدق، فإن تجاربنا تنطق بأنه لا يجوز النظر إلى ظاهر الفتن، وعزوها إلى السبب الأخير، ليظن ظان أن تلافى ذلك السبب البسيط أمر سهل ممكن، فيعدل عن الحزم إلى مجرد الوعظ، بل الواجب أن نغوص بعيداً لنرى الأسباب الحقيقية للفتنة، وحيثياتها الكثيرة، وجذورها القديمة، لا نكتفى بمجرد الحلول العاطفية للمشاكل، بل ننزل إلى أصول البلاء.

إنها ليست القشة تقصم ظهر البعير، لكن الطارىء الذى لا خبرة له يظن ذلك.

وقد يخالط باطل المبطل بعض الحق، ولكن ابتداء أمر كل فتنة هو انحراف فى النفس ليس لباحث أن يغفل عنه.

إما أن يكون تأسيس واستمرار الدعوة على مبادىء، أو على رجال، فإن كانت المبادىء فهنالك ظن الخير، وإن كان الاجتماع على رجال ففى ذلك نظر، واقرأ الفاتحة على هذه الدعوة أو بالأحرى... اقرأ الخاتمة..

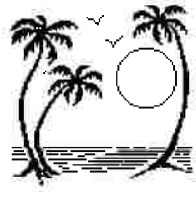

## طفحت فأشغلت (٢)

أصعب حالات الدعاة الذين يرابطون مع أمير على أمر جامع: أن تنقلب عند بعضهم الموازين، فيغدو الإيجاب سلباً.

وإنما تؤسَّس الجماعة الإسلامية على قاعدة الولاء لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، فيكون الحب والبغض فى الله تعالى،ويكون عَرض أعمال الرجال على الحق، فنقبل منهم وندع.

ولكن يغفل البعض عن هذا المعيار أحياناً، ويؤدى اختلاط الأصوات فى أيّام الصخب إلى ذهول عنه، ويظهر نوع من ولاء الداعية لأساتذته ومربيه بالحق والباطل، بأن يلتزم موقفهم وتأويلهم على طول الخط، منتصراً لهم،فتكون بداية الانتكاس،إذ لا معصوم، ولا يؤذن لبشر يزيد إيمانه وينقص،ويصيب رأيه ويخطىء، أن يحتكر الولاء.

فهو يودهم ويواليهم لا لسبب شرعى يوجبه الفقه، من نصر مظلوم أو تعاون على بر أو طاعة أمير، وإنما بسبب العلاقة الخاصة، حتى لو كانت الأسباب الشرعية ترشد إلى قطع ما هو فيه من ولاء، من وجود ظلم عند أصحابه الذين والاهم، أو الانتحاء جانباً عن الجماعة،أو الخروج عن خُطة الأكثرين، أو الانحراف والشذوذ والتفرد فى الاجتهاد.

### حروفٌ خارج الأبجدية

ويتضاعف السلب المتولد من هذه المودات الشخصية عندما لا يقنع الواهم بإظهار الولاء فقط، وإنما يتعداه إلى الدفاع والذبِّ عن صاحبه، ويُسخر لسانه لنقد الآخرين،فتكون وخزات القول الجارح الحديد التى تؤلم قلوب النبلاء، فإنه:

أوجع من وخـــزة السنان  لذى الحجا: وخزة اللسان [١]

وما كان السلف رضي الله عنهم على مثل هذا، بل كانوا يُقلون الكلام حتى فى المباح، وحيث لا أذى، إبعاداً لاحتمالات الزلل عند الإكثار، وقد وصفهم إمام المحدثين بالبصرة عبد الرحمن بن مهدى **فقال**: «أدركت الناس وهم على الجُمَل».

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/ ١٨٤.

**قال الإمام أحمد بن حنبل معقّباً:**

«يعنى لا يتكلمون أى: ولا يخاصمون» [١].

فإنما هى جُمل يسيرة من الكلام بحروف معدودة، ليس وراءها إيذاء أو تخذيل أو تعكير قلوب.

وهكذا كانت الحياة الإسلامية تمضى حين يقودها الصالحون، بل الحياة الإنسانية حين تصفو فتحكمها سنن الفطرة، فيتوارى المهذارون، ولو استقرأت التاريخَ وأوصاف المجتمعات فإنك:

(تجد الوحدان والجماعات أقربها إلى الصدق والجد: أقلها كلاماً، يشغلها الفعل عن القول، ويغلب فيها الفكر واليد على اللسان،وأقرب الناس إلى البطالة والهزل أكثرها كلاماً، وأذربهم لساناً، إلا قليلا .

لو اتصل اللسان بالفكر لقيده الفكر، ولو صحب القولُ العملَ لوقَّره العمل، ولكن اللسان يتقلب فى هراء لا ينفذ، ويصرّب ألفاظاً لا تحد، قولُ بغير حساب، وقشر ليس فيه لُباب.

وكم قال الناس قديماً فى كثرة الكلام وقلّته، وفى ثقله وخفته وما يتأمل متأمل فى أحوالنا إلا يجد تصديق ما قيل، فحركة ألسنتنا تربو كثيراً على حركات القول والأيدى، وابتكارنا أكثره فى الكلام لا فى النظام، وفى القول لا فى الفعل.

رحم الله مَن جعل عقله على لسانه رقيباً، وعمله على قوله حسيباً) [٢].

فهو اللسان وراء الحالتين.

وذلك سبب الوصية بسجن اللسان، **لما قال:**

تَحَفَّظ من لسانك ليس شيء أحق بطول سجن من لسان

أما إذا أطلقته حرًّا، فهنالك تكون المتاعب...

إن اللسان إذا حللت عقاله ألقاك فى شنعاء ليس تُقالُ

فالعاقل والقيد أليقُ لكل لسان، وأحوط، وأبرأ، لأنه ليس من أحد يقيلك

(١) كتاب العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد ١/ ٢١٨.

(٢) الشوارد لعبد الوهاب عزام / ٩٩.

ويعفيك من سقطاته، إلا الأقل، فانتبه.

وإياك أن تُستدرج إلى وادى الأذى متوهماً القيام بمهمة وعظ الآخرين، فإن التشهير يزيل نُبل الموعظة.

(قال الشافعى رضي الله عنه: مَن وعظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

وقيل لمسعر: أتحب مَن يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحنى فيما بينى وبينه فنعم، وإن قَرَّعنى بين الملأ فلا [١].

هذا الإيذاء إذا كان مجرد اللسان يرسل الكلمات هذراً، فكيف به إذا حسَّنت زيفه فنونُ البلاغة والنَظْم وجُندت الأقلام واستجاشت العواطف نبراتُ الخطابة؟

الخَطْبُ أدهى عند ذاك بلا شك، وأشد إذا ساعد المحيط خلال الفتن.

فكم من خطيب قام فيها مثـــرثراً ... فطرّى لنا من يابس القــول ما طرى

وكم شاعر قد أرخص الشعر دونها ... وكم قلمٍ فـوق الطـروس بها صَرّا[٢]

ثم تتحدر الحالة إلى سوء أكثر حين لا يكون ثَمَّ طرف واحد يمنح لسانه الحرية، بل أطراف أخرى تدافع عن نفسها، وتفنّد المزاعم، فيثور الجدل، فيعم الصخَب، كأنك فى سوق الصفّارين حين يزدحم الطَرْقُ، فيخفت صوت هتاف الإسلام، فتضمحل الحماسة.

ملأنا الجَـو بالجـدل اصطخابا ... وكنـا قبـلُ نَمـلؤه هتُـافـا

وما زلنـا نهيـم بكـل واد ... من الأقـوال نرسلها جُزافا [٣]

وهذا لأن الشر له قابلية التسلسل، وهو ولود، سريع النسل، كثيره، وليس الحزم إذا رأى المخلصون أوائله إلا فى أن يتحاملوا، ليسدوا الطريق أمام استطراده، فإنه...

إذا دُفـع الشـر القبيح بمـثله ... تحـصل شـرٌّ ثالـث وتـولـدا

وأمست دواعى الشـر ذات تسلسـل ... مديدٍ وصار الشـر فى الناس سرمدا

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ١٨٢.

(٢، ٣) للرصافى فى ديوانه ٢ / ٢٨٠، ٢٩٨.

إذا أيقظـــتنى للعـــدا اعـــــتداءة شربت لها من خالص العفو مُرفـدا

وأضرب عن جهل الجهول ولم أكنْ لأضرب فى الأيام للغدر موعدا [١]

وكان التحالمُ صفة النبى ﷺ ،فكان يغضب ويحمرّ وجهه الشريف، ثم لا يعاقب.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَسَمَ النبى ﷺ قسماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله !

فأتيت النبى ﷺ فأخبرته.

فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه، ثم قال:

«يرحم الله موسى، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[٢] .

## فصاحة الجمال الصامت

لكن السلب يتعدى أن يكون كلامًا معيبًا يتناول الآخرين بأذى ويظل قائل القول الحسن المفيد ناقصًا أيضًا إذا لم تسعف الأعمال دعواه العريضة، وهى صورة من الصور المرجوحة رصدها المربون فأنكروها، وبينوا كيف أن قوماً:

إذا نصبوا للقـــول قالـوا فأحـسنوا ولكنّ حُسْنَ القول خالفـــه الفعـلُ

ورصدوا حالة معاكسة طرأت كان الأقدمون ضدها، يوم أظهروا الدأبَ الصامت.

وكان البـــــرُّ فعـــلاً دون قـــول فصـــار البـرُّ نُطـــقاً بالكـــلام

وساد عُرف التفاصح، فاسترخت أيادى التصافح، حتى:

«نطقنا بالعربية فما نكاد نُلحن، ولحنا بالعمل فما نكاد نُعرب».

كما عبّر إبراهيم بن أدهم.

أو أنك «قد قنعت بفصاحة اللسان مع عُجمة الجنان، إذًا لا ينفعك الفصاحة للقلب لا للسان».

فى تعبير عبد القادر الكيلانى.

(١) للرصافى فى ديوانه ٢/ ٢٢٠.

(٢) صحيح البخارى٤ / ٢٣٠ طبعة صبيح.

**وسبب ذلك**: خلل فى ركن الإخلاص والعياذ بالله، وقد بينه الجُنيد البغدادى فى معادلة واضحة، أنه:

(يخلص إلى القلوب من بره على حسب ما تُخلص القلوبُ عند ذكره).

ثم قال: «فانظر ماذا خالط قلبك»؟

فالعمل الصالح بر، وإنما يأذن به الإخلاص، فإن لم يوفَّق القلبُ إلى مزيد بر فالواجب أن تفحص كفحص الأطباء عن أخلاط ومكدرات وشوائب تعيق.

بل لا يحتاج صاحب الإخلاص إلى تذكير الآخرين بما عنده، وما هو بحاجة إلى دعاية أو دفاع عن النفس، إنما هو مثل زهرة ينتشر ريحها ويجبر المار بجوارها على الالتفات والاستمتاع بشذاها الزكى حتى لو لم يرها أول مرة.

«فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه. فاللهَ اللهَ فى السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر»[(١)].

وكلما وعى الدعاة هذه الحقائق أكثر تقلصت احتمالات الفتن فى دارهم، واضمحل ما يلازمها من تكبر وحسد وجدال، وكان عمرو بن قيس الملائى يرى رءوس التواضع ثلاثة، أحدها: «أن لا تحب الرياء والسمعة والمدحة فى عمل الله»، وكانت وصية يحيى بن أبى كثير أن: «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل».

فخذ برأس الأمر أيها الأخ الداعية، ولا تستغرب كثرة التوصية بهذه المعانى التى مرت عليك عند الابتداء، فإنها تلزمك عند التوسط أيضاً، وعند الانتهاء فإن «أقرب الناس من الرياء آمنهم له» كما يقول التابعى عَبدة بن أبى لُبابة.

## حين تغوص فى الأوحال القدَمُ

وخبر هذه الاختلاطات القلبية وازدواج النية خبر عجيب غريب، حتى أنها قد تستدرج العالم أو الداعية إلى أرض الحسد وهو يظن أنه يحسن صنعا، ويتوهم أنه يسعى إلى حق أقره الشرع عليه، وقد ضرب الإمام الغزالى فى الإحياء مثالاً لورود هذا الالتباس فى الحياة العلمية، يمكننا أن نقيس عليه شيئاً يحدث فى الميادين الدعوية، وفى المثال كشف لأسرار النفس الإنسانية يحتاج الدعاة تعلمه، وفيه وصف

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي/ ٢٠٧.

لنوع خفى من الفتن حرى بهم أن يفقهوه.

ويبدأ الغزالى بالتذكير بـ «أن الباعث للأكثرين على نشر العلم: لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله ﷺ وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنتَ أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً وأعود عليه فى الآخرة من انفراده، وليت شعرى لو اغتم عمر ـ رضى الله عنه ـ بتصدى أبى بكر رضي الله عنه للإمامة: أكان غمُّه محموداً أم مذموماً؟ ولا يستريب ذو دين أنْ لو كان ذلك مذموماً، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى مَن هو أصلح منه: أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله عنه باستقلال مَن هو أولى منه بالأمر، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟

وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر مَن هو أولى منه بالأمر لفرح به، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد، وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثنى فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق، وإلا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر»[2].

فأعد التأمل فى هذا النمط من السلوك النفسى: ينفتح لك باب عريض من فقه القلوب ينجيك بإذن الله من ضيق الفتن التى قد تغرى داعية بالتنافس مع داعية آخر،

(١) سورة الحجر: ٤٠.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٣١٨.

فيتبرم من وجوده وكلامه ودروسه، وما ثَمَّ غير الحسد، والعياذ بالله، فيأخذ بالوشاية عليه لدى الأمراء.

وكان من الممكن لهذا النوع من الحسد أن يكون محدود الأثر، لكنّ طبيعته تترك قلب الحاسد يغلى، فيستهلك نفسه، ويطمع الشيطان أن ينال أكثر، فيغرى الحاسد بالنميمة والوقيعة بين المحسود وإخوان له، فيتعدى الأثر، وتعم البلوى.

هذه الحالة هى التى شكاها الكثير من فقهاء المسلمين ونبلائهم، جيلا بعد جيل، وما يزال يشكوها بعض الدعاة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وتنطق بها تقارير وشهادات ومحاكمات.

وإنك لتسمع توجع محسود يقول:

أفشى علىَّ مقالـــة ما قلتُها وسعـى بأمر كان غير سديد

فينعصر قلبُك: تألم لألمه، وتأسف لهذا التردّى الأخلاقى.

ثم تلتفت، فتصادف مُصلياً يدعو ربَّه أن يعصمه من «الغواية فى الرواية»، فتتخيل كم آذت هذا المسلم غواية التلاعب بالألفاظ والحقائق.

وتستنبىء التاريخَ عن أشد ما أرهق عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ فإذا هو ما تابع فيه الأفوه الأودى فى قوله:

ولم أرَ فى الخطوب أشـــد وقعاً وأصعب من معاداة الرجال[1]

فترى آهته هذه مجرد مِفْصل فى السلسلة التى أدت به أن يُعَلّق أمام الكعبة.....فارساً لا يترجل.....!!

وتستطرد القصص.. تترى.

وعلاج هذه النميمة لا يكون بوعظ مقترفيها، فإن للشيطان عشيرة حكَمَ بنمائها القَدَرُ، وهُم بنسبهم فى سرهم يفرحون ويفخرون، لكن العلاج الحاسم إنما يكون فى صدود الثقة عن صاحب الإفساد الواشى، وتحسين الظن بالمؤمنين، وتقديم ما تعلم من خبر أخيك على خبر الهامس بأذنك، واستحضار سابقاته الخيرية، واستشهاد أيامه الماضية.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى / ٢٠٣.

وهذا الطمع فى وعى الثقة ونباهة الأمير هو الذى عوّل عليه المظلومون دوماً، فيهز أحدهم ضمير أخيه هزًّا، وينطلق.

أليس من العدل أن تسْمعا ... فأشكو إليك نَموماً سعى؟
فأبدعَ ما شاءَ فى فرية ... تأنَّق فى صنعها وادّعى
وما كان لولا خلاجُ الظنون ... ليرغبَ فى القول أو يطمعا
وليس ملامى على من وشى ... ولكن ملامى على مَن وعَى
أيجمل بالعهد أن يُستباح ... لواشٍ وللودِّ أن يُقطعا؟
ومن أشرك الناس فى أمره ... دعته الضرورة أن يُخدعا

وهذا هو البارودى [١].. عاشق الحرية... ذو القلب الكبير، وقد ظن قلب صغير أنه هزمه، لكن الأيام طمرته، وبقى الحر شامخاً.

وكان آخر قد تصدى من قبل، فجهر جَهْرَ الواثق من صحيفته ورصيده وماضيه وحاضره، متعجباً من تغير أميره....

أما جربتنى فخبرتَ منّى ... نصائح لم يُمازجها خِداعُ؟
ونطت بى المصاعب فاستقادت ... مُطاوعة وكان بها امتناعُ
ولم تعثر بحمد الله منى ... على عيب يكتمُ أو يُذاعُ

هو الحريرى صاحب المقامات [٢]

فليس ملامهما على من وشى، لكن على من مَنَحَ الأذن الصاغية.

فالنصائح التى أضمرت أو أبديت لم تُحفظ.. !!

والدأب الذى ذلل الصعاب لم يشفع.. !!

وغلبت فرية ما هنالك.. !!

وفى التفويض إلى الله تعالى مندوحة.

وهو الحكم ـ عز وجل ـ، يرفع ويخفض، وعنده سنجتمع.

(١) ديوان البارودى / ٣٢٥.
(٢) المقامات / ٢٩٧.

لكن الناس يستعجلون..!!

وليست المنزلة أن تنال لقباً أو أن توضع فى الصدارة، ولكنّ المنزلة أن تحتل حيزاً فى قلوب المؤمنين، وأن تنادى ملائكة السماء أهل الأرض: أن الله تعالى أحب فلاناً فأحبوه.

«إن قيادتنا للحياة هى القيادة، وليست مراكز المسئولية التى تضعنا فيها التوزعات الدعوية ويمنحنا إياها أمير الدعوة.

صانع الحياة يدوس الألقاب برجله ويحطمها، ويمضى يصنع الحياة من موطن التخصص والفن والإبداع.

هو ملىء النفس ولا يحتاج أحداً لملئها.

الذى يُطالب بالمسئوليات والألقاب الدعوية والنقابة والإمارة على المؤمنين إنما هو العاجز الذى لا يحسن عملاً ولا تخصصاً ولا فنًّا، فيطلب التعويض بإنعام الألقاب عليه، ويعارك، ويختلف، ويناضل دون مكتسباته السابقة، ويملأ الكواليس همساً وسعياً، وأما المقتدر فيتقدم تقدم الواثق»[١].

## لما أطاع الهوى... هوى...!

إنّ قصص الخلاف و «الظُلم الأخوى» تكشف الحاجة القصوى إلى عملية إعادة التربية وتزكية النفوس، فإن الأهواء وجدت لها مسرحاً.

والنفس إن صَلحتْ زكت، وإذا خَلَتْ ... من فطنةٍ لعبتْ بها الأهواء

لولا النميمةُ لم يقع بين امرىء ... وأخيه من بعد الودادِ عداءُ

«وإن ما تسمع وترى من، خصام وافتراق، وبغض وشقاق، وجدال ومراء، وتنافر وعداء، كل أولئك مما آثر الناس الباطل، ومالوا مع الهوى.

ودواء هذا الداء أن يُعرَّف الناسُ الحق ويبصّروا به ويُرغبوا فيه حتى يحبوه فيؤثروه، وأن يُعلموا العدل ويمرنوا عليه حتى يطيعوه، وأن يُكشف لهم الباطل فى شناعاته، والجور فى سيئاته، ويبين لهم كيف شقى بهما الناس[٢].

---

(١) صناعة الحياة / ٦٤.

(٢) الشوارد لعبد الوهاب عزام / ٣.

فإذا ظفرت بذى الوفاء فحُطَّ رحلك فى رحابه

فأخوك من إن غاب عنك رعى ودادك فى غيابه

وإذا أصابك ما يسوء رأى مصابك من مصابه

وتراه يَبْجَعُ إن شكوت كأنّ ما بك بعض ما به

ليس أقل من ذلك، ونرفض الدبلوماسيات الباردة، والابتسامات المصطنعة والمواساة الهامشية.

وإن مهمة التربية الدعوية فى كل حين أن تنتج نموذجاً مسلماً:

واضح المنهج يسعى دون غش أو نفاق

راضى النفس، كبير القلب، يدعو للوفاق

قلبه المؤمن بالخالق مشدود الوثاق

نبضه الذاكر يمتد إلى السبع الطباق

وواجب الداعية المتلقى أن يتجاوب مع مربيه فى الخضوع لهذه الخُطط التربوية النفسية، ليس تلهيه عنها ممارسة سياسية أو طموحات تخطيطية أو مهمات تخصصية، بل ذلك أوجب وآكد له، لما فى الأداء الإدارى والسياسى من جفاف يضع القلب على حافة الخطر، وعلى كل تلميذ «أن يستعين بطبيب ماهر، فإنه ليس كل أحد يستطيع أن يرى الأشواك التى تصيب القلوب، وليس كل من يراها يستطيع أن يقتلعها»

وهو يحتاج فى هذا إلى نية وعزم على تحمل المرارة، مرارة المكاشفة الصريحة، والإشارة إلى العيب، فإن أكثر النفوس فطرت على الجفلة من النقد، والتعالى على النصيحة، وقد:

ضحكت وجوه التُرّهات ولم يزل وجه الحقيقة فى الأنام عبوساً[1]

والناس تسترسل مع الأخلاق الخفيفة، والرياء، والمداهنة، وتبادل المدح، ولكل أحد حساب من «المقاصة»فى ذلك، يوفى إلى الناس ويستوفى، ويصدّر ويستورد، ويُقرض ويستقرض، ولكن الحقائق كاسدة فى الأسواق، وهى على أرصفة الموانىء

(١) الرصافى فى ديوانه٢/ ٣٩٥.

مطروحة، لا يشتريها مستهلك، فقد حكم الدلالون أن «موديلاتها» قديمة، وأنه قد تغيرت الأذواق، وأن الراغب بها يكره أن يدفع مُعَجّلاً، نقداً، بينما تلك الترهات يؤخَّر ثمنها إلى أجل، وتقايض ببضاعة من جنسها «مقايضةً».

* فانتفض أخى على المألوف السائد، ولا تتبع المتساهل.
* فإنه «لا يغنى عنك ندمك إذا زلت قدمك».
* واعلـم أن «أكثر الناس مع ظاهر النقود، ليس لهم نقد النقاد،ولا خبرة الصيارفة».
* وانظر إلى مراتب الناس وأحوالهم وأقوالهم، «وأعط كل ذى حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً».
* واصعد ربوة الإنصاف «فإن من رقى إلى هذه الربوة بعين لا قذى بها: أبصر الحق عيانا بلا مرية، وأخبر عنه بلا فرية».
* وابرأ من صاحب «إذا أقدمت أحجم، وإذا أعربت أعجم».
* فإنه ليس وراء الربوة غير السراب.
* وإنك فى متوالية لا تنتهى.

**أرقامها...**

**دهرٌ... يَغُرُّ...**

**وآمالٌ... تَسُـرُّ**

**وأعمارٌ... تَمرُّ**

**وأيام... لها خُدَع...**

## ركوب الأسنة (٣)

وفى الصحراء هائم آخر ، بيده الملف الضخم، ملف الهفوات يُحصيها على أصحابه، وما من هفوة إلاّ ولها تأويل يصرف صاحبها عن السوء والعمد ويجعله فى دائرة الاجتهاد الذى يؤجر عليه، ولكن النفس المنحرفة تتبرم.

وأعجب منه ظالم لا يحصى على أصحابه فقط بل على جماعة بأكملها، وقد رأيت فى بعض البلاد ملفًّا من نحو ألف صفحة سماه جامعه: «ألف خطأ وخطأ لجماعة كذا»، يستخرج فيه من الكتب أقوالاً، ومن التصريحات ومن هفوات أعضاء الجماعة، ويفند ويتوتر، ويرعد ويزيد، ويدعو إلى الاستئصال وهدم هذه الجماعة المحتكرة للساحة، لتخلو الأرض، ليبنى ـ فى زعمه ـ بناءه الجديد مكانها، ولم ير المسكين مناقب الجماعة وإنجازاتها بمقابل ذلك،ولم يشفع أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، ولم يسمع أنات مسجونيها وراء حديد الظالمين، ولا دماء شهداءها المراقة، ولم يفتش عن تأويل يزيل وهمه، ولا عن عذر توجبه الموازنات بين درجات المصالح ونوايا درء المفاسد التى أذن بها الفقهاء، وما درى أن الشيطان يؤزه للهدم، فإذا خلت الأرض: صرف همته عن البناء البديل، ورجع بوزر الصدّ عن سبيل الله. . . !!

وفى هذه الصحراء، تائه آخر يستبد به القلق، ويغلو فى الأسلوب، فيتورط بمدح مبالغ فيه، ثم يتورط فى أخرى بذم كثيف، فميزانه متأرجح، وعياره حصاة التقطها جزافاً، ليست سبيكة قد ختمها ولى السوق ورقيب الحسبة بختمه.

### حقائق.. وإنْ أنكرتها الأهواء

القضية ليست خاصة لنسكت، وإنما هى حق عام، لذلك يجب الحزم، وتليق العقوبة.

إن الجماعات إنْ لم تحترم قوانينها ولوائح الحقوق والواجبات فإن المأزق يكون وشيكاً،وفى كل عَرَصَة آذان لا يطربها ترجيع ولا حداء، إنما تستروح لدقات المعاول.

والمنفرد لا يستطيع وحده أن يبنى نادياً ضراراً مهما تزعّم وزعم أنه رأس، ولكنه بالأعوان يستطيع، ولذلك يكون محشر الأتباع مع الرأس الذى علمهم الظلم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾[١].

وكما شرع الله المكافأة شرع العقوبة.

بل العقوبة بلا رأفة إذا كان السوء بالغاً.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾[٢].

وكما نحب البعض فى الله نكره آخرين فى الله.

وإنما علا الإسلام زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه كان حازماً.

وهناك جماعة... ليس دكان بقّال.

فمن يشعر بشعور باطل نقول له: اجعل نفسك وراء ظهرك.

وعلى المحاسبة تُبنى حياة الجماعات.

والحلول العاطفية تذهب... مع الريح.

والالتزامات الطيارة... ستطير، ولبثها قليل.

فمن يقيم أبنية الضرار، ويهتك الأسرار، ويحدث ثغرة فى الأسوار:

ندعوه إلى التوبة، فإن تاب وإلا فالإقصاء حق.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[٣].

أى ليست مجرد فائدة ومصلحة، بل حياة.

إذا لـم يكـن إلا الأسِـنّة مركباً  فما حيـلة المضـطر إلا ركوبها؟

وصاحب الزلل نبين له طريق التبرؤ من الهوى، فإن حالفه التوفيق وندم على ما كان طولب ببيعة.

وبعض أهل الإصرار يرون فى البيعة مذلة، فيحجمون.

---

(١) سورة القصص: ٨.

(٢) سورة النور: ٢.

(٣) سورة البقرة: ١٧٩.

وهذا انقلاب فى الموازين: أن تكون السُّنّة بدعة...!!

لا نطلب طاعة بالإكراه، ولكن إن رغب أحد بنيل شرف وأجر العمل الجماعى فعليه الالتزام.

الباب مفتوح بهذا الشرط، ثم يحار المتردد ... ويظمأ...!!

## توبة الصالح.. فريدة..!

وقد ضرب الأستاذ صالح عشماوى ـ رحمه الله ـ مثلاً لهؤلاء، لعلهم بقصته وتوبته يقتدون.

كان الأستاذ ـ رحمه الله ورفع درجته ـ من قدماء الدعاة ورجال الرعيل الأول، ولبث مع الإمام المؤسس دهراً كأحسن ما يكون الداعية عملاً، وأصبح عضو المكتب، فلما قُتل الإمام ـ رحمه الله ـ والمحنة جاثمة اختلطت أوراق، واشتبهت أمور، وتحركت وساوس، فافتتن نفرٌ وجعلوا الأستاذ رأساً عليهم، ثم مرت السنوات الحالكة، وطالت المحنة فندم على ما كان منه، وطلب أبلغ صور التوبة النصوح.

وقد زرتُ دار مجلة الدعوة يوماً فوجدت شيخاً وقوراً يجلس بتواضع على كرسى خيزران قديم خارج باب الشقة كأنه بوَّاب، ولكنه مهيب، وله طلعة نورانية.

فسلمت عليه واستأذنته، فأذن، فدخلت، فقال لى أخٌ ممن هناك: هل عرفتَ ذاك الرجل المحترم الذى كأنه بواب؟

قلت: لا، لكنه استرعى اهتمامى.

قال: ذاك صالح عشماوى، يرى أن نفسه استروحت يوم جَعَله المشاكسون رأساً ونادوا به أميراً، وعزم على أن يرجع جندياً فى آخر الصف، ويصر على أن ذلك من تمام توبته، فاختار أن يكون بواباً، ولو يعلم أن هناك منزلة أدنى من منزلة البواب لسارع إليها، يلغى بذلك ما سَلَف منه من تطلع للصدارة.

فعجبتُ ودهشت لهذه الروح الصافية والقلب الكبير.

ثم قال لنا الأستاذ عمر التلمسانى ـ **رحمه الله** ـ: دعونا له، ودعوناه أن يكون أخاً لنا يشارك كالآخرين، ويتوب الله على من تاب، ولكنه أبى ورفض، وأصررنا وبلغنا غاية الجُهد فى إقناعه، لكنه أصر إصراراً على أن يعاقب نفسه بالتأخير.

ثم خطبنا الأستاذ عمر ـ **رحمه الله** ـ بعد سنوات **فقال:**

لقد تاب الأستاذ صالح عشماوى توبة أحسبها لو وزعت على دعاة الإسلام فى القاهرة جميعاً لوسعتهم.

ـ رحمهم الله جميعاً، وعصمنا من الفتن بعدهم ـ.

## ميثاق الأمن الدعوى

وخَطب فينا هُمام أحزنه جدلٌ قعد بدعاة الإيمان، فنطق بحروف حرى أن تخط بقلم كوفى عريض، معلناً فينا دستور حقوق العمل الإسلامى.

قال جزاه الله خيراً وزاده فصاحة:

إن تَشخيص أخلاق الرجال واجب ..

لأن السلوكيات تتكرر فى الأجيال ..

وتتجددُ الأنماط النفسية حتى لكأن نَسباً واحداً يجمعها ..

وقد يلجأ الأمير إلى حماية الجماعة بسياسة الحزم ..

فيرفض التمييع والتردد والمواقف القلقة ..

وفقهُ الضرورات ومنهج الاحتياط رديف لفقه الموازنات المصلحية ..

وإن شرعية الاختلاف لا تلغى أفضلية الاتفاق

والآمال.. العريضة لابد لها من نفوس عالية ..

والتأصيل أساس فى دَرء الفتن ..

والنص الشرعى حُجة .. وأما التحليل فلكلّ مورده ..

ولا يكون الاجتهاد حجة على اجتهاد آخر ..

إنما اجتهاد الأمير مُقَدّم ..

وينبغى أن يغَلب العقل العاطف ..

وليست الجماعة حشد أسماء .. وإنما كتُلة قلوبٍ ..

تقودها قيم.

## أحاديث شريفة (٤)

ونصوص القرآن والحديث الشريف تشهد للأمراء وتمنحهم حق الطاعة، لكن بعض من يُحاور فى قضايا الفتن يظن أن هذه الآيات والأحاديث لا تنطبق على علاقات الإمارة والجندية فى الساحة الدعوية، ويذهب إلى أنها غير صالحة للاستشهاد بها، لأنها إنما وردت فى الأمير الذى يحكم كل أو بعض بلاد المسلمين حكماً سياسيًّا من خلال دولة ونظام.

ولسنا نجادل فى أنها وردت فى ولاة الحكم، ولكن معناها يتعدى ليسرى على الإمارة الدعوية من خلال القياس الأصولى، وعبر استحضار الروح العامة للشريعة فى باب الإمارة، وهى الروح التى احتكم لها ابن تيمية فى بعض إفتائه، وعنصر القوة فى قبول هذا القياس أن البيعة لأمراء الدعوة انعقدت بعقد رضائى تام، وألزم الدعاة أنفسهم بهذه الطاعة اختياراً، لما قام فى قلوبهم من معنى لزومها لإيجاد حقيقة العمل الجماعى الكفيل بوضع الدعوة فى موضع المكافأة لخصوم الإسلام فى ساحة التنافس، ولم يقل أحد من الدعاة بلزوم طاعة عامة المسلمين لأمراء الدعوة، وإنما مضى مذهبهم بوجوبها على من بايع عن قناعة واختار هدر حقوقه فى الاجتهاد والتصرف إذا خالفتهما توجهات وأوامر أمراء الدعوة. ويزداد رجحان صحة هذا القياس إذا كان الدعاة فى زمان أو مكان ليس فيهما حاكم شرعى أتت به بيعة شرعية شورية، فتكون مسارعة الدعاة إلى مبايعة أمير دعوى نوعاً من التعويض المستند إلى منطق فقهى صحيح، لما تؤدى إليه هذه البيعة الناقصة الحالية من احتمال إحلال البيعة السياسية الحكمية فى عالم الواقع مستقبلاً، وما لا يدرك كله لا يترك جُله، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وسيأتى من كلام ابن حجر ما يؤيد هذا القياس.

فاترك تساهل من يعفيك من صرامة الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى الأمراء بحجة عدم انطباقها على الواقع الدعوى، وعظ نفسك بها، وتأمل معانيها جيداً، فإن لك فيها بإذن الله عصمة من شطط وقع فيه نفر ممن مرَّ قبلك.

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**مَن كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية**»، وفى لفظ «**من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإن من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة**

**جاهلية»** [١].

«وقال ابن أبى جمرة: المراد بالمفارقة: السعى فى حَلِّ البيعة التى حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شىء، فكنى عنها بمقدار الشبر»[٢].

«والمراد بالميتة الجاهلية ـ وهى بكسر الميم ـ : حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس لهم إمام مطاوع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً، بل يموت عاصياً» [٣].

* وأخرج البخارى عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «**دعانا النبى ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان**» [٤].

* وذكر ابن حجر أن فى رواية عند ابن حبان وأحمد: «إلا أن يكون معصية لله بواحا».

ثم قال: «قال النووى: المراد بالكفر هنا: المعصية، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور فى ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا الحق حيثما كنتم. انتهى. وقال غيره: المراد بالإثم هنا والمعصية: الكفر، فلا يعترض على السلطان إلا إذا وقع فى الكفر الظاهر.

**والذى يظهر**: حمل رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة فى الولاية، فلا ينازعه بما يقدح فى الولاية إلا إذا ارتكب الكفر، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية، فإذا لم يقدح فى الولاية نازعه فى المعصية ، بأن ينكر عليه برفق ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف، ومحل ذلك إذا كان قادراً، والله أعلم. ونقل ابن التين عن الداودى قال: الذى عليه العلماء فى أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب، وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم: لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا فى

---

(١) صحيح البخارى ٩/ ٥٩ طبعة صبيح.
(٢) فتح البارى لابن حجر ١٣ / ٩ طبعة الخطيب.
(٣) فتح البارى لابن حجر ١٣ / ٩ طبعة الخطيب.
(٤) صحيح البخارى ٩/ ٥٩.

جواز الخروج عليه، والصحيح المنع، إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه» [١].

وفى هذا الكلام قاعدة دعوية مهمة جدًّا، فقد توهم بعض من يجرى مع الظاهر بلا فقه أن المسلم عليه أن يقف صامتاً إذا لم ير الكفر وليس كذلك الأمر، بل عليه أن يأمر وينهى وينكر على الحكام أصحاب المعاصى، فإنما اختلفوا فى جواز منازعتهم فى الولاية، ولم يختلف الفقهاء فى وجوب الإنكار عليهم والصدع بالحق، فتأمل.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» [٢].

وقد تكلم ابن حجر فى توجيه إطلاق الكفر على قتال المؤمن فقال: «إن أقوى ما قيل فى ذلك أنه أطلق عليه مبالغة فى التحذير من ذلك لينزجر السامع عن الإقدام عليه، أو أنه على سبيل التشبيه لأن ذلك فعل الكافر» [٣].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى**» [٤].

**قال ابن حجر:** «فى رواية همام والأعرج عند مسلم: ومن أطاع الأمير، ويمكن رد اللفظين لمعنى واحد، فإن كل من يأمر بحق وكان عادلاً فهو أمير الشارع، لأنه تولى بأمره وبشريعته، ويؤيده توحيد الجواب فى الأمرين، وهو قوله: فقد أطاعنى، أى عمل بما شرعته، وكأن الحكمة فى تخصيص أميره بالذكر أنه المراد وقت الخطاب، ولأنه السبب ووقع فى رواية همام أيضاً: ومن يُطع الأمير فقد أطاعنى بصيغة المضارعة، كذا: ومن يعص الأمير فقد عصاني، وهو أدخل فى إرادة تعميم من خوطب ومن جاء بعد ذلك» [٥].

وهذا الكلام من ابن حجر فى غاية الأهمية، لما فيه من تأييد ما ذهبنا إليه من القياس الأصولى لأمور أمراء الدعوة الذين يأمرون بالحق على أمراء الحكم، مما ذكرناه آنفا.

---

(١) فتح البارى ١٣/ ٩.
(٢) صحيح البخارى ٩/ ٦٣.
(٣) فتح البارى ٣١/ ٣٠.
(٤) صحيح البخارى ٩/ ٧٧.
(٥) فتح البارى ٣١/ ١٢٠.

* وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**» (١).

* وقال النبى ﷺ لعبد الرحمن بن سُمرَة رضي الله عنه: «**يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة: وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة: أعنت عليها**» (٢).

(١، ٢) صحيح البخارى ٩/٧٨، ٧٩.

## قال لى ... وقلت (٥)

لما صدرت مقالة المعلقة أول مرة: ظن داعية أنها انحياز لجانب الأمراء، فجرى بينه وبين داعية من أهل الفضل والفقه هذا الحوار النافع، ونشره آنذاك، وقد رأيت إلحاقه برسالة فضائح الفتنة تعميماً للفائدة...

*****

**قال لى**: يا أخى لا تشددوا على الداعية، إنه صادق النية، وقد مارس حقه فى الاجتهاد، وأنه مأجور بأجرين إن أصاب، وأجر واحد إن أخطأ.. فلماذا هذا الرد العنيف عليه، ألا يترتب على هذا كبت طاقات الداعية، وتعويده على الطاعة العمياء، وبالتالى ينشز جيل من «الموافقين..» ويسيّر فيهم أمر الآمر بدون نقاش ولا ردّ، ثم ينشأ جيل تُقتل فيه روح الإبداع؟ .

** **قلت**: صدقت يا أخى، إن التشديد ليس مطلوباً إلا فى حالاته الضرورية ـ وجزاك الله خيراً ـ ولكنى رأيت أن هذه الحالة شىء آخر، وقبل كل شىء يجب أن نعتقد أن صدق النية وعكسها لا نتحكم فيهما الآن، وهما من الأمور المتعلقة بقلب الفرد، ومدى تربيته، ودرجة تقواه.. وإن كانت هناك دلالات وقرائن على ماهيتها، وقد يشعر بها صاحب البصيرة والفطنة والفراسة ولا ننكر هذا، ولكن الذى هو خاضع للموازين هو ظاهر الأمر، بل هو الذى سميته «اجتهاداً».. فالاجتهاد ليس عملية غيبية خفية، أو أهوائية ميلية، إنما هى محكومة بضوابط شرعية، وموازين ثابتة. لا يمكن تجاوزها أو العدول عنها.. فالمنكر لا يصبح معروفاً إلا إذا كان الاجتهاد اشتهاء، يعدل وشتان بين الاجتهاد والاشتهاء.. فالمنكر يظل منكراً، والمعروف يظل معروفاً، ولا يتحول إلى منكر بالاجتهاد.

**بل يا أخى**: ومتى صار تحكيم الضوابط وسد باب الأهواء كبتاً للطاقات، وإنشاء لجيل من الغافلين الموافقين..؟ فكما أن الدعوة لا تريد الغافلين النائمين، فكذلك لا تريد الجماعة الغوغائيين الأهوائيين، بل نريد بناء جيل واع للواقع ومدرك للأوضاع، ومطيع للأوامر بالمعروف بعد أن عرفناه به، وصابر على ولى أمره، مقدر لظروف الآخرين، ويضع الاجتهاد فى مواضعه الصحيحة، ويوضح آراءه وفق القواعد

والموازين الشرعية، وخلال القنوات الرسمية.

* **قال لى**: إذا كنت تشير إلى الصبر على زلة الأمير، فلماذا لا تشير إلى تحمل الأمير لزلات أتباعه، وسعة صدره تجاههم حيث إنه ولى أمرهم وأخوهم الكبير، وأنهم خطاءون وليسوا معصومين عن الزلل والخطأ.

** **قلت**: صدقت ـ جزاك الله خيراً ـ ولكن اعلم يا أخى أن المسئوليات متوزعة، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، وأن خطأ الطرف الثانى ـ مهما كان كبيراً ـ لا يغطى خطأ الطرف الأول ولا يمسحه، فالأصل أن يتخذ كل شخص موقفه، ولا ينشغل بعيوب غيره عن عيوب نفسه... ولتشفع حسنات الأخ عندنا لسيئاته.. ولنتأكد جيداً أن انقيادنا لفلان من الناس ليس لنفسه، وإنما لأمر الجماعة، وانضمامنا للجماعة ليس لمصلحة دنيوية وإنما لحسن أداء واجبنا الدينى، والقيام بالتعاون جماعيًّا على البر والتقوى.. إذاً فالسمع والطاعة فى المنشط والمكره، والصبر على الأمير وغيرهما من الأحكام المستمدة من النصوص والأحداث التاريخية فى السيرة المطهرة، بل وإن تأكيد الآية على الطاعة فى بيعة النساء ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ (١) فيها دلائل واضحة على أن هناك حالات تحتاج إلى صبر من المأمور، وأن الطاعة لا تكون فى المنشط دائماً، وإنما تكون فى المكره أيضًا،وسواء أكان هذا الكرهُ ذوقيًّا أم عن اجتهاد واشتهاء، ففى كل الحالات تلزم هذه الطاعه.. أما الشطر الثانى من القضية أن يكون الأمر فى معروف، ولا طاعة فى المعصية، فهذا واضح بملاحظة كلا الجانبين حيث يجب:

* **أولاً**: التأكد من تحقيق معروفية المعروف، وماهية المنكر، وأن يكون حكمهما متحققاً لدى المأمور، فمتى ما تأكد من معروفية الأمر بمعناها الواضح بنص أو إجماع أو قياس أو اجتهاد منضبط، فليس له غير الطاعة آنذاك، وإذا ما تأكد بتحقق أن الأمر ليس بالمعروف، أو أنه أمر بمعصية فليس له الطاعة عندئذ.

* **وثانياً**: أن اعتبار الأمر معروفاً أو منكراً خاضع لقواعد وموازين شرعية كما أشرنا، ولا يتجرأ المؤمن أن يتهم أميره الذى هو ولى أمره بالخطأ فى تشخيصه، ويصوب رأى نفسه، فليس اجتهاده أولى من اجتهاد غيره، بل يصعب على المؤمن أن يميز بين المنكر الشرعى، وبين المعروف المستكره.. فسمعه وطاعته لأميره فيما أمر به

(١) سورة الممتحنة: ١٢.

من «معروف» مكروه لديه، أسلم لدينه من أن يَحسبه معصية، وما يتجنبه من منكر احتمالى أولى من أن يقع فى منكر يقينى،ألا وهو العصيان، وعدم الالتزام، وشق الصف، وفتنة الابتعاد عن الجماعة، ومآله إلى الهلاك، أو الوقوع فى الفتنة.

أما مسألة العصمة والخطأ فكلنا نردد هذه العبارات: أن الكل خطاءون، وأن الكل ليسوا معصومين، ولكننا مع الأسف فى التطبيق العملى لا نلتزم به، وكأنه شعار للرفع فقط.. فندعى العصمة لأنفسنا حينما ندافع عنها، ولا نلجأ إلى كوننا من الخاطئين إلا عند الحاجة أو التبرير... ونطالب الناس بالعصمة، ولا نغفر الخطأ الصادر عنهم، ولو أخذنا بمبدأ أن: «كل ابن آدم خطاء» وعدنا إلى الصواب والرشد، لما دافعنا عن أنفسنا بكل هذه القوة، ولما حاسبنا غيرنا بهذه الصرامة.

* **قال لى**: يا أخى أنت كأنك وزير إعلام «للكبار»، ألا تلتفت إلى وضع «الصغار» وما يعانونه من مآسى الغربة والفقر، والإهمال التكافلى، وإلى ظروفهم النفسية، وما يحيط بهم من إحباط.

** **قلت**: يا أخى لست وزيراً، ولا إعلاميًّا كاذبًا، وإنما أجتهد أن أبين ما أرى فيه الالتباس... وليس فى الدعوة ـ فى تصورى ـ كبار ولا صغار، وإنما همّنا «الأخوة» بمعناها الواسع«حقوقاً وواجبات» وهنا يتحقق معنى التكليف الشرعى، فالكل عليه أن يحمل مقداراً منه بالقدر الذى يقدر على أدائه، ويتمكن من حسن أدائه.. فالكبار ـ بتعبيرك ـ تحملوا العبء الأكبر،والمقدار الأكثر من المسئولية الشرعية وعلينا أن نعينهم بدعواتنا ونصائحنا، وجهدنا التنفيذى المكثف، وما به تتحقق مصالح الجماعة من العمل المشترك والكبير هو الذى يؤدى دوره الكبير،ويتحمل المشاق والصعاب، ويسهر على مصالح الدعوة، ولايدخر جهداً لإعلاء كلمه الله تعالى مهما يكن موقعه، فهذا هو الكبير فى ميزان الله تعالى، والصغير هو غير ذلك، مهما كان مركزه، أو مهما قال عنه الآخرون.

أما ما يعانيه الصغار ـ بتعبيرك ـ من المآسى، فليست هى ميزتهم وحصتهم وحدهم، فدنيا المسلمين اليوم والميدان الإسلامى عموماً، يتوج بهذه الحالة، والأفضل لنا أن نبذل جميعاً الجهد العملى بأنفسنا، وأن نبدأ برفع هذا الكابوس النفسى

والمادى ولا ننتظر أحداً.. وكل يقوم بدوره الإيجابى، وكل يقوم بما يستطيع أن يؤديه وأمثل لك بمثال بسيط الدعوة كمركبة «سيارة» وقيادة الدعوة سائقها والعاملون فى الدعوة ركابها..والناس هم الجهة التى يتوجه الركاب إليها، فترى السائق يتمتع بوضعية خاصة من الحقوق؛ يتميز فى كرسيه، ويقدم له الشاى والمأكولات قبل باقى الركاب، وله حظوة خاصة عند المطاعم والمقاهى وغير ذلك.. أما واجباته فواضحة، فهو يسهر الليل والنهار ولا يغمض له جفن فى الوقت الذى ترى فيه بقية الركاب أحراراً فى نومهم وتصرفاتهم، وليس أحدٌ من الركاب مسئولاً حتى عن حياة كل الركاب .. لأنه مسئول عن حياة نفسه.. فليس من الإنصاف نسيان الواجب الصعب، والمنصب الحساس هذا، ومحاججته فى كرسيه المنفرد الشاى المقدم له، وما إلى ذلك من الجزئيات التى لا يقارنها العاقل الورع المنصف مع تلك الواجبات الخطرة والمتاعب الشديدة التى يعتمد عليها مصير المركبة وركابها، وهكذا يقاس الأمر الدعوى والداعية اللبيب يفهم مغزى المقارنة.

فطوبى لمن شغلته عيوبه عن ذكر عيوب الناس، وقدّر ظروف كل داعية فى موقعه المناسب والمستحق له، ووازن بين حقوقه وواجباته.

* **قال لى**: نعم، طوبى له ولكن الأمور ليست هكذا هينة.. فالحديث متعلق بنفسيات البشر وخصائصهم.

** **قلت**: يا أخى إن الأمر لا يستدعى هذا التفاقم والتضاخم.. فإن الإنسان بمهمته يقلع الجبال.. فاصرف همتك على الانشغال بنفسك والقيام بما هو تكليف عليك، ولا تفكر فيما يجرى حولك، ومن يُجريه، وخلص نفسك من هذه الهموم الزائدة.. ولا تهتم بأقوال الناس، وأد ما استطعت عليه من واجب وتوكل على الله وحده.

* **قال لى**: سأفعل، ولكن هذا يحتاج إلى صبر، ومصابرة.

** **قلت**: وهل يقوم قيام العبد إلا بالصبر.. استعانة به وتواصياً، واتصافاً، وتخلقاً.. ولا تنس أن الصبر قد أمر به رسول الله ﷺ وركبُ المؤمنين الذين

معه، أن يصبروا مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى. . بل هو من الأمور المقارنة لعملية التواصى بالحق، كما فى سورة العصر، ولابد من الصبر على التكاليف الدعوية، كما ينبغى الصبر على الأمراء والقادة، كما تقتضى الدعوة الصبر على الجنود والأتباع، وفوق ذلك كله، الأجر الجزيل والمثوبة عند الله تعالى.

* **فقال لى**: جزاك الله خيراً كثيراً، فلقد وعظت ووفيت.

** **فقلت له**: وجزاك خيراً على حسن الاستماع، والمؤمن مرآة أخيه، ووفقنا الله جميعاً لما يحبه ويرضاه.